



التصوف ودوره في ترسيخ العلاقات الروحية بين الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي

Sufism and its role in the consolidation of spiritual relations between Algeria and the countries of the Sahel

سالم بوتادارة (*)

جامعة أدرار، الجزائر

Salem Boutadara

salem2900@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2021/12/27 تاريخ القبول: 2022/03/26 تاريخ النشر: 2022/03/31

الملخص:

تتميز العلاقات الجزائرية ببلدان الساحل الإفريقي بعمقها التاريخي، إذ لا تقتصر على مظاهر الجوار الجغرافي، بل تتجاوزها لتشمل أيضا الروابط الروحية التي ساهمت في نسجها الطرق الصوفية عبر مراحل التواصل الصوفي بين الجزائر وبلاد الساحل، وما زامن ذلك من صلات ثقافية وبشرية وحضارية تبلورت ملامحها عبر قرون طويلة من الحراك الاجتماعي والتفاعل الحضاري بين شعوب المنطقتين. وفي إطار تلك المعطيات تهدف هذه الدراسة إلى رصد دور التصوف في ترسيخ العلاقات الروحية بين الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي.

الكلمات الدالة:

الجزائر، الساحل الإفريقي، العلاقات، توات، التصوف.

Abstract:

Algerian relations with the countries of the African Sahel are characterized by their historical depth, not only by the manifestations of geographical proximity, but also by the spiritual ties that have helped to weave them through the mystic communication between Algeria and the Sahel.

Within that framework, the study aims to monitor the role of mysticism in the consolidation of spiritual relations between Algeria and the countries of the African Sahel.

Key Words:

(*) المؤلف المرسل



Algeria, African Sahel, Relations, Touat, Sufism.

مقدمة:

تنوّعت مظاهر العلاقات الجزائرية بدول الساحل الإفريقي وتعدّدت أوجهها، فلم تعدّ تقتصر على التنقلات القبليّة أو المبادلات التجارية، بل زادت على ذلك بانخراط العلماء ومشايخ التصوف في حركية نشطة جعلت من الحلّ والتّرحال سبباً لنقل المؤثرات العربية الإسلامية إلى شعوب إفريقيا الغربية، وتم ذلك عن طريق الصحراء الجزائرية التي لم تكن عامل انفصال بقدر ما كانت حلقة وصل بين المناطق الواقعة في شمالها والمناطق الواقعة جنوبها في الساحل الإفريقي، فقد شهدت ضفتنا الصحراء الافريقية تواصلاً مستمرا منذ أقدم العصور. زاد نشاطاً وتنوعاً في المظاهر بوصول الإسلام لشمال إفريقيا، ومن تلك المظاهر كان التواصل الصوفي الذي حمل عاتقه رجال الطرق الصوفية ومريدوهم. وبين رياض التصوف وحضرات الأشياخ والمريدين نشأت علاقات روحية وطّدت نسيج التواصل الجزائري ببلاد الساحل الإفريقي.

تهدف هذه الدراسة إلى ابراز طبيعة العلاقات الروحية بين الجزائر وبلاد الساحل من خلال الوقوف على جذورها التاريخية والأعلام الفاعلين فيها والمناطق التي كانت مهداً لها. وعن طريق المنهج التاريخي - وبالاستعانة بأدواته كالوصف والمقارنة- سترصد هذه الدراسة إجابة مقتضبة عن إشكالية محورية تتعلق أساساً بماهية العلاقات الروحية الجزائرية مع بلدان الساحل الإفريقي وجذورها التاريخية؟ وما الطرق الصوفية التي حملت أعباء ذلك النوع من العلاقات؟ ومن هم أبرز أعلامها؟ وما الدور الذي جسّدته الصحراء الجزائرية كهمزة وصل بين الشمال الجزائري وبلدان الساحل الإفريقي؟

1. الجذور التاريخية للعلاقات بين الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي

بلاد الساحل الإفريقي هي المنطقة التي كان يطلق عليها في العصور الوسطى اسم بلاد السودان، وهي الأقاليم شبه الصحراوية التي انتشرت فيها الاسلام والواقعة جنوب الصحراء الكبرى،¹ وهي الواقعة حالياً ما بين بحيرة تشاد شرقاً، والمحيط الأطلسي غرباً، وبين الصحراء الكبرى شمالاً والمناطق الاستوائية جنوباً، وقد وجد هذا المصطلح في كتب الحوليات على غرار



"حوليات توات" التي أشار صاحبها إلى انتقال بعض القبائل بين الصحراء الجزائرية وبلاد الساحل².

وترجع الجذور التاريخية للعلاقات الجزائرية ببلدان الساحل الأفريقي إلى فترات متقدمة سبقت وصول الإسلام إلى المغرب الأوسط (الجزائر)، حيث كانت بُنية المجتمع الجزائري آنذاك تزخر ببعض المجموعات الإفريقية التي استقرت بالجزائر وانصهرت بين ساكنة المدن والأرياف عن طريق الولاء والانتماء الكامل³. وبوصول الإسلام إلى الجزائر ازداد التواصل بينها وبين بلدان الساحل الأفريقي، فحدثت إثر ذلك نقلة نوعية في تاريخ العلاقات الروحية بين الجزائر ومنطقة الساحل الإفريقي، فبالإضافة إلى دور المبادلات التجارية والهجرات البشرية في تمكين تلك العلاقات، قام التجار والدعاة بدور إيجابي في نشر العقيدة الإسلامية في بلاد الساحل لتشمل ربوع إفريقيا فيما بعد، وساعد انتشار الإسلام على رواج كثير من مظاهره كالتصوف والرحلات وغيرها في تلك المناطق من إفريقيا⁴.

وتعتبر الرحلات العلمية التي يقوم بها العلماء وطلبة العلم ومشايخ الطرق الصوفية ومريدوهم أهم رافد من روافد التواصل العلمي والروحي بين الجزائر وبلاد الساحل الأفريقي، لما كان يتم فيها من احتكاك وتبادل مباشر للعلوم والمعارف وأوراد الطرق الصوفية، وقد تكون الرحلات دينية كركب الحجيج والتي كان يصحبها علماء وفقهاء يتقدمهم شيخ يسمى شيخ ركب الحجيج، أو رحلات المريدين للقاء أقطاب ومشايخ التصوف وزيارة زواياهم والاستزادة من علومهم فهم غالبا ما يكونون علماء متصوفين، أو حتى تلك الرحلات التي كانت عبارة عن هجرات بين المنطقتين سوء كانت فردية أو جماعية والتي كوّنت نسيجاً علمياً غير منقطع بين الجزائر وبلدان الساحل نتجت عنه تلك الزوايا وفروعها في كلا المنطقتين، وكذلك الأسر العلمية التي اشتهرت بعلمائها وما تركوه من زخم علمي يمثل إرث حضاري بين تلك البلدان، كما نتج عن ذلك تلك الإجازات و السماعات التي يحصل فيها طلبة العلم ومريدو الصوفية عن إجازة من شيوخهم في كل ما قرؤه وسمعوه عنهم حفظاً أو رواية⁵.

وتوضح لنا مختلف الأدبيات أن تواصل الجزائريون ببلاد الساحل كان مبكراً، حيث تجنّد بعضهم للدعوة هناك وأسهموا في نشر الثقافة العربية لكن لم يكتب لهم النجاح الذي حققه الشيخ المغيلي هناك، والذي علت سمعته على من سبقوه في الدعوة ببلاد السودان قبل



القرن 15م إذ يعد من العلماء المرموقين في عصره، إذ اشتهر بعلمه الواسع ومواقفه السياسية الصارمة ونشاطه الإصلاحى المجدد، حيث حارب اليهود الذين استبدوا واستكبروا في توات، ورأى بعدها أن ينتقل الى السودان الغربى لنشر الإسلام والقضاء على الوثنية، وقضى وقتاً طويلاً هناك في الدعوة والإصلاح، إذ خَلَفَ هناك تلامذة وأتباعاً انتهجوا نهجه وهكذا أصبح له حضور قوي في أقطار السودان الغربى.⁶

هذا وقد انتظمت الرحلات الجزائرية وخاصة التواتية منها على بلاد الساحل الإفريقي بعد أن بعث ملك بورنو "كاندي" (1440-1447م) إلى بعض العلماء البارزين للقدوم الى بلاده مؤكداً لهم أنه سيسهر على أمهم وراحتهم وأنه لن يأخذ منهم أي ضرائب، خاتماً رسالته بالقول: "إن البلد بلدكم مثلما كان لأبائكم من قبل".⁷ وبالرغم من أهمية الرحلات كرافد للعلاقات الروحية بين الجزائر وبلاد الساحل فإنها لم تكن الوحيدة، فالقبائل ذات الأصل الجزائري والتي استقرت بالكامل أو فروع منها في مناطق مختلفة من بلاد الساحل لم يقتصر دورها على التجارة أو التواصل العلمى بين الحواضر الجزائرية والحواضر الإفريقية في تومبكتو ومالي ومملكة سنغاي، بل أقامت زوايا جعلت طبيعة العلاقات الدينية بين الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي وشرقه وغربه ترتبط بشيوخ تلك الزوايا والطرق الصوفى، مثل زاوية الشيخ محمد ابن عبد الكريم المغيلى، وزاوية الشيخ المختار بن الأعمش الجكنى، كما قامت كل من الزاوية التجانية والقادرية والبكائية والسنوسية والشاذلية بغرب إفريقيا منذ القرن 15 م بإنشاء مراكز وزوايا لنشر اللغة العربية وتعاليم الإسلام ومبادئ التصوف والدعوة إلى تعلم العلوم الشرعية والإصلاح الدينى والسياسى.⁸

حيث تذكر المصادر التاريخية بأن منطقة توات بالجنوب الجزائري كان لها اسهام كبير في مد مناطق السودان الغربى بالأفكار والتعاليم الإسلامية وذلك عن طريق العلماء والفقهاء والتجار، كل حسب طريقته الخاصة، فالفقيه عمل عن طريق التدريس والإرشاد، والتاجر اجتمه عن طريق المجالس واللقاءات في الأسواق والمحافل العامة في بث تعاليم طريقته الصوفية التي اعتنق مبادئها.⁹

وفي ظل تعزيز روابط الاخوة والاستقرار الاجتماعى عملت الزوايا الدينية الجزائرية على ملء الفراغ الروحي عند الأفارقة بحلقات الذكر التي تُعرف بالحضرة تعويضاً عن حلقات



الرقص والعادات المخالفة للإسلام، وهذا ما زاد في تعميق التواصل الجزائري الإفريقي، ومن هذا المنطلق اعتبرت الجزائر بعدها الأفريقي عنصراً جوهرياً من عناصر هويتها العربية الإسلامية.

وتجدر الإشارة إلى أن انتشار الطرق الصوفية وتزايد عدد مريديها في بلاد الساحل خاصة وفي عموم إفريقيا يعود إلى مبادئ الإسلام، إذ أن سماحة الدين الإسلامي وبساطته ويُسرّه جعلت الأفارقة يعتنقونه بسرعة وبكل سهولة وطواعية دون أن يُكره أحد منهم.

2. التصوف وأشهر الطرق الصوفية الفاعلة في العلاقات بين الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي

1.2. وصول التصوف للجزائر وبلدان الساحل الإفريقي

عرفت الجزائر ظاهرة التصوف منذ العهود الأولى لدخوله لبلاد المغرب، حيث أصبحت الحياة الروحية فيها تقوم على نشاط الطرق الصوفية، والتي قادها شيوخ وعلماء حملوا على عاتقهم نشر الإسلام وتعاليم مناهجهم الصوفية والتي وجدت في الجزائر وبلاد الساحل الإفريقي أرضاً خصبة لتنمو وتتفرع في ربوعها. إذ بعد القرون الثلاثة الأولى تسارعت وتيرة انتشار التصوف القادم من المشرق ببلاد المغرب، وانتظمت أكثر من ذي قبل بعد ظهور المصنفات الخاصة بالدعوة للتصوف، وزاد عن ذلك أن وصل التصوف العقلي من الأندلس بحلول القرن الخامس الهجري، وانتشرت تصانيف المتصوفة الممزوجة بين التصوف السني والعقلي، وفي مقدمتها مؤلفات أبي حامد الغزالي ومؤلفات ابن عربي، وأشهرها كتاب الإحياء دون انتشار عقائد التصوف في عصر المرابطين (447-541هـ) حتى ظهر مشايخ متصوفة كبار، في تلك الحقبة، وبالأخص في عصر الموحدية (515-668هـ) وفي هذه الفترة بالذات حظي المتصوفة بنفوذ كبير بين المسلمين، حتى وسط الحكام حيث أصبحت لهم حظوة ومكانة في أوساط المجتمع.¹⁰

وبانصواء الجزائر تحت لواء الدولة العثمانية التي كان التصوف يكاد يأخذ الطابع الرسمي فيها، تدعمت الزوايا الصوفية بنفوذ أكبر ومريديها كثر، حيث سيطرت روح التصوف في مجالس التعليم، وحياة المجتمع، وبدل على ذلك كثرة التصانيف في مختلف فروع التصوف كالأذكار، والأوراد، والمواعظ وغيرها، وهذا بسبب ما خلفه الأوائل من إنتاج غزير في هذا



الميدان، وما يزيد من افتراض دعم العثمانيين للطرق الصوفية أنه تكاثر عددها، وأسمائها بشكل ليس له سابق، وزادت الزوايا بالقدر نفسه، وأكثر، وانتشرت في الريف بعد أن كانت تقتصر على الحواضر، ويعتبر غرب الجزائر وصحرائها من أكثر المناطق التي عرفت انتشارا واسعا للطرق الصوفية وعدد الزوايا.¹¹

وكانت هذه الطرق عرفت الوصول إلى بلاد الساحل الإفريقي عن طريق مسالك التجارة، والتي كانت الصحراء الجزائرية أحد المراكز التي عملت بشكل فعال في تمرير الطرق الصوفية إليها.¹² اجتهد أتباع الطرق من التجار والعلماء وطلبة العلم في الدعوة إلى الإسلام عن طريق التصوف الذي كان له أثر في انتشار الإسلام في بلاد الساحل وأن هذه الطرق الصوفية كانت تقوم على الإرشاد الذي هدفه نشر تعاليم الدين الإسلامي وغرس ثقافة حب الجار والتسامح مع الديانات الأخرى هناك، خاصة وأن عامل الجوار والحدود الجغرافية المشتركة بين الصحراء الجزائرية ومنطقة الساحل منطقتين متجاورتين ساعدت على التقاء شعوب المنطقتين واشترآكهما في العديد من الخصائص.

2.2. أشهر الطرق الصوفية المساهمة في ترسيخ العلاقات الروحية بين الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي

انتشرت بالجزائر وبلدان الساحل الإفريقي طرق صوفية عديدة تفاوتت من حيث الشهرة والانتشار لكنهما اجتمعت في ربط علاقات روحية متينة بين المنطقتين ومن أبرز تلك الطرق التي رعّت عهد الصلة والتواصل الروحي بين الجزائر وبلاد الساحل نذكر:

القادرية: تنسب هذه الطريقة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني والذي يعتبر مؤسسها الأول وتعد من أكثر الفرق الصوفية انتشاراً في الجزائر وبلاد الساحل الإفريقي، ففي القرن الثامن الهجري وصل التصوف من المشرق إلى الجزائر، ثم انتقل إلى بلاد الساحل الإفريقي على أيدي التجار والرحالة من الصحراء الجزائرية في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، واتخذ أتباع الطريقة القادرية من ولاته في شنقيط أول مراكز لهم، ثم مدينة تنبكتو بعد ذلك،¹³ ، ولم يمضي زمناً طويلاً حتى عجت بلاد الساحل الإفريقي بالدعاة القادرين القادمين من منطقة توات بصحراء الجزائر ومنهم الفقهاء والعلماء، بدءاً بالشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي يعد مؤسسها الأول في المنطقة، وعنه أخذ الشيخ أحمد البكاي الكنتي، لتحمل لواءها الأسرة



الكنتية بدءاً بالشيخ أعمربن أحمد البكاي بن محمد الكنتي (ت 959 هـ - 1552 م)، وبلغت هذه الطريقة مجدها بظهور الشيخ المختار الكبير الكنتي (ت 1226 هـ - 1821 م).¹⁴

تلقت ولاته المدد الصوفي من الجزائر خاصة من توات وحل بها علماء تواتيون كثراً انتعشت بفضلهم الحركة العلمية في هاته المدينة، كما نشر الكنتيون الطريقة القادرية في كل من السنغال والنيجر وساحل العاج وغنيا.¹⁵ للطريقة القادرية فروع عديدة من أهمها: البكائية نسبة إلى أحمد البكاي المتقدم الذكر، حيث تزعم هذه الطريقة بعد وفاة أحمد البكاي ابنه عمر الشيخ ثم بابا أحمد ابن الشيخ المختار الذي اعتبر رئيس لهذه الطريقة أي من فرع البكائية المختارية بمنطقة تنبكتو والمناطق المجاورة لها، تم استقل شيخ من السنغال سمي الشيخ السنغالي عن القادرية البكائية وأسس القادرية المريدية.¹⁶

وبفضل المراكز العلمية التي أسسها الجزائريون لتنظيم دعاة للفرق القادرية فقد ظهر مريدون من طبقة الفقهاء والمثقفين انتشروا في كامل أرجاء بلاد الساحل من السنغال إلى نهر النيجر، وكان بعض هؤلاء ممن دخلوا في الإسلام عن طريق الطريقة القادرية، ويرحلون لصحراء الجزائر أو لمدارس الشمال الإفريقي لطلب العلم أو لملاقات شيوخ طريقتهم، حتى إذا ما حققوا مبتغاهم عادوا إلى أوطانهم، وكان المعلمون الذين ارتحلوا لطلب العلم يؤسسون المدارس في بلاد الساحل الأفريقي ويقومون بالإنفاق عليها،¹⁷ واتخذ نشاط الجماعة الطابع السلمي الذي يعتمد كل الاعتماد على النصح والإرشاد، وعلى تأثير المعلم في تلامذته، حيث اعتبر نشر العلم والدعوة للمبادئ الإسلامية من الصفات الكريمة التي يتميز بها الإنسان المسلم المتصوف.¹⁸ كما راجت هذه الطريقة بانتظام الملوك والأمراء إليها، وظهور حكام ومصالحين تشبعوا بأفكارها فقاموا بإصلاح سياسي وديني مثل الشيخ عثمان دان فوديو والشيخ أحمد.¹⁹

التيجانية: هي إحدى الطرق الصوفية الجزائرية المنشأ، تنسب إلى مؤسسها الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار التيجاني، المولود سنة 1150 هـ - 1737 م، بعين ماضي قرب مدينة الاغواط، تأسست سنة 1196 هـ / 1782 م ببلدة بوسمغون ثم بعد مرحلة انتشرت عبر سائر القطر الجزائري والبلاد العربية وكذا القارة الإفريقية ودول العالم.²⁰

ويرتبط انتشار التيجانية بمنطقة الساحل الإفريقي بحركة الحاج عمر الفوتي التكرور (1795- 1865 م)، الذي قام برحلة دينية طويلة بدأها بالذهاب للحج سنة 1825 م، وفي طريقه



زار مدنا إسلامية عديدة، وبعد عودته حظي باستقبال هام في المناطق التي زارها في التشاد، حيث استقبله السلطان الكاني، واستقبله في نيجيريا السلطان محمد بلو بن عثمان دان فوديو وغيرها من مناطق بلاد الساحل الإفريقي، إلى أن استقر بمنطقته في فوتاتور في مدينة "الدانجوراي" التي أسس بها زاوية له لنشر طريقته التيجانية ومبادئها القائمة على أساس محاربة الوثنية، ونشر الإسلام والوقوف في وجه المتعاونين مع الاستعمار من خلال توحيد البلاد الإفريقية في ظل الإسلام وتحقيق دولة إسلامية إفريقية قوية.²¹

حاول الحاج عمر الفوتي نشر الطريقة التيجانية بغرب إفريقيا من خلال تنقلاته التي شملت مدن كنجانا بالنيجر وكنكان، كومبيا، دياجونكو وماسينا الواقعة بين تمبكتو وسيغو في جمهورية مالي حاليا، ثم عاد سنة 1849م إلى دانجوراي ليستكمل نشاطه بها، وبعدها اتجه سنة 1858م نحو النيجر ومناطق البمبارا الوثنية في سيغو لنشر الإسلام والقضاء على مظاهر الوثنية هناك، كما كان لمؤلفاته الصوفية دور كبير في كسب أتباع كثر لطريقته، ومن مؤلفاته كتاب "رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم" يحتوي على أمور عديدة كالحث على دخول الطريقة التيجانية.²² وهكذا انتشرت الطريقة التيجانية بمناطق عديدة من بلاد الساحل باستثناء بعض المناطق التي بقيت بعيدة عن تأثيرات حركة الفوتي مثل شمال السينغال وموريتانيا التي كان فيها نفوذ كبير للقادرية، ورغم الانتشار الواسع للتيجانية بغرب إفريقيا إلا أنها لم تحقق النجاح مثل الطريقة القادرية.

وعلى العموم فقد ظهرت بغرب إفريقيا زوايا تيجانية عديدة مهمتها نشر الطريقة ومبادئها فبالإضافة إلى الزوايا التي أقامها الحاج عمر الفوتي، أسس أحد أحفاده زاوية أخرى بداكار عُرفت باسم زاوية الحاج عمر الفوتي، وزاوية تيواوون غرب السينغال التي أسسها "مالك سي" (ت 1922م).²³

الشاذلية: تنسب إلى الشيخ أبو الحسن الشاذلي وتعتبر من أهم الطرق التي عرفت انتشارا في الجزائر، وانتقلت منها إلى بلاد الساحل الإفريقي، تفرعت منها فروع في الجزائر أهمها الطريقة اليوسفية الراشدية التي أنشأها الشيخ أحمد بن يوسف الملياني المتوفى سنة 1525م، وأصله من قلعة بني راشد وتخرج من مدرسة الإمامين محمد بن يوسف السنوسي العالم



الشهير، وصاحب التأليف الشهيرة، وأحمد زروق البرنسي المتوفى سنة 1493م صاحب الطريقة الزروقية.²⁴

تولى الشيخ الخلافي بعد النهوض بالطريقة بنواحي تلمسان، كما أنشأ حفيده محمد بن ميلود فرعا بضواحي عين الصفراء، وقد كان للطريقة اليوسفية دورا بارزا داخل الجزائر.²⁵ أما في صحراء الجزائر فقد تفرّعت عنها الموساوية والطيبية والزبانية، والتي بدورها تفرّعت منها الرقانية نسبة إلى الشيخ عبد المالك الرقاني الذي كان كثير الترحال إلى بلاد الساحل من أجل التجارة ونشر العلم، حيث يذكر البرتلي صاحب فتح الشكور، أنه تتلمذ عليه، وأخذ عليه الورد الشاذلي، بالإضافة إلى وجود أكثر من أربعين شخصية تواتية في بلبند التكرور، كما كان للشيخ الرقاني رحلات إلى عدة أماكن في بلاد الساحل الإفريقي، مثل السنيغال، وبوركينا فاسو، التي لا زالت بها زوايا تابعة لطريقته.²⁶ كما رحل من الجزائر إلى بلاد الساحل الشيخ علي بن حنيني الأنصاري الزجاجاوي، كان على الطريقة الشاذلية وعالما في الفقه، امتهن التجارة إلى جانب كونه عالما فقيها متصوفا، وعمل على نشر العلم والطريقة الشاذلية.²⁷

الحمالية (الشرفية): تنسب الطريقة الحمالية إلى الشيخ حى الله المولود بمدينة " نيور " شمال مالي (1883-1943م)، وهي أحد فروع الطريقة التيجانية، أخذها الشيخ حى الله عن أستاذه التيجاني الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله المعروف باسم الشريف الأخضر وهو من توات بصحراء الجزائر، استقر في نيور حوالي عام 1860م، يدرس تعاليم التيجانية بغرب إفريقيا إلى أن وافته المنية بها عام 1909، وهنا يظهر مرة أخرى التأثير التواتي في غرب إفريقيا، وقد أسس الشيخ حى الله الطريقة الحمالية -بعد وفاة شيخه- على أسس اجتماعية ودينية، قائمة على تحرير المرأة ورفع الغبن عن الطبقات المظلومة، ولم تختلف عن التيجانية في موقفها المعادي للاحتلال.²⁸ وقد شرع الشيخ حى الله في نشر طريقته بمنطقة الساحل فاستطاع أن يكسب عدد من الأعوان في نيور، ونيمما، وولاته، وبعض المناطق في موريتانيا، وانتشرت على طول نهر السينغال ما بين داكار وسانت لويس، ووصلت إلى النيجر وغينيا.²⁹

وفي عام 1929 أعلن الشيخ حى الله الحرب ضد الصوفيين المحالفين للاحتلال فنفاه الفرنسيون، ثم حكم عليه بالسجن إلى أن مات سنة 1943، فحاول أحد تلاميذه المدعو يعقوب سيلا، أن يخلفه في العمل ويواصل نشر الطريقة، لكنه أجرى عليها تعديلات جعلته



يصبح متطرفا في تعاليمه لدرجة أن أتباع الطريقة الحمالية أنكرته وأصبحت طريقته تعرف باليعقوبية، انتشرت على الخصوص بين شعب السراكولا، واستقلت عن الحمالية، وظلت هي والحمالية على عدائهما المشترك للتيجانية.

السنوسية: تنسب إلى الشيخ محمد بن علي السنوسي المولود بضواحي مستغانم سنة 1202هـ/1787م، ارتحل الشيخ السنوسي إلى فاس لطلب العلم. ولم يمض وقت طويل على وجوده هناك حتى استطاع الحصول على المشيخة الكبرى وعيّن مدرسا بالجامع الكبير في فاس، فبدأ حياته العلمية الدعوية، وارتحل بعدها إلى الحجاز، ثم قفل راجعا يحده الشوق إلى بلده الجزائر، غير أن التواجد الاستعماري الفرنسي فيها حال بينه وبين تحقيق أمنيته في الدخول إليها، فندب العلامة السيد محمد بن صادق أحد تلامذته وحمله بعض الأموال والأسلحة لتوصيلها خفية إلى الأمير عبد القادر الجزائري، مما يدل دلالة واضحة على مدى اهتمام الشيخ السنوسي بقضية بلاده الجزائر التي أصبحت تؤرقه وتشغل باله، فكان يعمل على تقوية الثورة هناك ومدّها بالأموال والرجال ما استطاع إلى ذلك سبيلا إلى درجة أن الفرنسيين حملوه في بعض الوقت المسؤولية عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر.³⁰

عاد الشيخ السنوسي أدراجه إلى طرابلس ومنها إلى برقة التي أسس فيها الزاوية البيضاء، خاصة وأنه وجد ترحابا من البرقيين، وكان تأسيسها سنة 1842م وأطلق عليها لقب الزاوية الأم واتخذ منها مركزا لدعوته، وكان تأسيسها في أعلى الجبل الأخضر غير بعيد عن قبر الصحابي الجليل رافع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه.³¹ بدأت الطريقة السنوسية في الانتشار في إفريقيا الشرقية والوسطى بشكل واسع، ثم دخلت إلى إفريقيا الغربية فانتشرت في النيجر والتشاد وسعت إلى ربط مريديها بتلك المناطق بزواياها المتواجدة بالجزائر وليبيا.³²

كانت هذه أهم الطرق الصوفية التي انتشرت بالجزائر وبلاد الساحل الإفريقي، والتي نجحت إلى حد كبير في نسج العلاقات الروحية بين المنطقتين من خلال استقطاب الأفارقة وكسب تأييدهم حتى أصبحت الأفكار الصوفية جزء لا يتجزأ من حياتهم اليومية، ولعل هذا راجع حسب "بول مارتى" إلى طبيعة النفسية الإفريقية الزنجية، حيث يقول: "أن الإفريقي لا يستطيع أن يحيا في هذه الدنيا، أملا في نيل الثواب في الآخرة، إلا إذا سار وراء رجل قوي قديس حلّت عليه البركة الإلهية".³³



ولعل الواقع الذي فرضه الاستعمار جعل الأفارقة إلى جانب قناعاتهم بماهية الطرق الصوفية يسلكون درب الكفاح اقتداء بأولئك الذين حملوا لواء الجهاد بالجزائر وغيرها ضد المحتلين، فلا شك أن أتباع الطرق الصوفية التي برز أعلامٌ منها في المقاومات الشعبية كانوا ينقلون إليهم صور البطولة والكفاح التي صنعها أبطال صوفيون كالأمير عبد القادر والشيخ المقراني والشيخ الحداد وغيرهم، مما دعم نسيج العلاقات الروحية بين الجزائر وبلاد الساحل.

3. مظاهر العلاقات الروحية بين الجزائر وبلاد الساحل الإفريقي

تجلت مظاهر العلاقات الروحية بين الجزائر وبلاد الساحل في مجالات عديدة، لعل أبرزها الزوايا وفروعها في كلا المنطقتين ورحلات أقطاب التصوف إلى بلاد الساحل وانتقال كتبهم التي بفضلها حُفظت الأذكار والأسانيد الصوفية. وقد سبقت الإشارة أنفا إلى بعض رحلات العلماء الجزائريين لبلاد الساحل الإفريقي، ولا يمكن اختزال صورة العلاقات الروحية بين الجزائر وبلاد الساحل على تنقلات الجزائريين فقط، إذ جسّد طلبة العلم وأتباع المتصوفة السودانيين وجه آخر لتلك العلاقات بفضل رحلاتهم نحو الجزائر، ومثال ذلك رحلة أبي عبد الله الفلاني (ت 1194هـ/1780م) من بلاد التكرور إلى تينيلان بتوات لتلقي العلم عن الشيخ عبد الرحمان التينيلاني، حيث مكث شهرين وست ليالي أجازه الشيخ عبد الرحمان بن عمر ببعض العلوم. كما زار صحراء الجزائر مرات عديدة الشيخ أحمد بن الأمين الغلاوي (ت 1157هـ/1744م)، وهو شيخ ركب الحجيج من بلاد التكرور إلى توات، فيكون الأمر لأبي نعامة القبلاوي.³⁴

وقد حلّ بتوات محمد الإداوعي (ت 1198هـ/1784م) قادما من بلاد شنقيط، ونزل بزواية الركب النبوي بأقبلي، حيث استقبله شيخها أبو نعامة وطلب منه البقاء معه، لكن محمد الإداوعي فضل الانتقال للصحراء الجزائرية وبالضبط لتمنيط عند الشيخ البكري بن عبد الكريم، الذي استقبله وبقي عنده دارسا ومدرسا، فذاع صيته في توات وطلبه عدد من أعيان القصور، فاختار قصر اعباني بفنوغيل، حيث استقر هناك وبني زاويته ومدرسته، لكن شدة الحنين لبلاد الساحل الإفريقي في آخر أيامه فهاجر إليها وتوفي هناك.³⁵

وتذكر الروايات أن وفدا من حاضرة أروان جاء الى زاوية كنتة بتوات وطلب من شيخ الزاوية علي بن الشيخ أحمد الرقادي أن يرسل معهم مرشدا ومعلما فكلف الشيخ أمين



الرقادي بالذهاب معهم، ونزل عند قبيلة أولاد أحمد قادة يدرس ويرشد الى أن توافاه الله، وبذلك انتشرت الطريقة الرقادية في أقاليم التكرور انطلاقا من زاوية كنتة بصحراء الجزائر.³⁶

كانت هذه الرحلات غالبا ما تُستضاف في زاوية من الزوايا الصوفية التي جسدت كذلك مظهرا جليًا من مظاهر التواصل بين الجزائر وبلاد الساحل الإفريقي كزاوية الشيخ الهاشمي بن أحمد الشريف بعميش بوادي سوف والتي قام شيخها بنشاط كبير في نشر الطريقة في أقاصي الصحراء، وربط بذلك علاقات وطيدة مع بلاد السودان وغات.³⁷ كما أنشأ الشيخ المختار الكنتي الكثير من المدارس في منطقة نهر النيجر وموريتانيا لنشر الإسلام والطريقة القادرية، وكان يقوم بجولات دعوية يطوف فيها البلاد الواقعة ما بين المحيط الأطلسي في الغرب وجمهورية النيجر في الشرق، وما بين وادي درعة وتوات في الشمال وما وراء نهري السنغال والنيجر في الجنوب.³⁸ وقد كان من نتائج نشاط أقطاب التصوف ورحلاتهم بين الجزائر وبلاد الساحل أن ازدهرت حركة التواصل والتأثير من خلال الكتب التي كانت تتم في كثير من الأحيان بفضل تلك الأنشطة الرحلية، وكذا بفضل القوافل التجارية التي تنطلق من مدن الصحراء الجزائرية باتجاه بلاد الساحل، محملة بمجموعة من السلع كالتومور، والقماش، والمنسوجات، إلى جانب الكتب، التي راجت تجارتها، وأصبحت من السلع الأساسية، والغالية الأثمان في حمولة القافلة التجارية، خاصة ما كانت تدره من أرباح تفوق بكثير أرباح السلع الأخرى، وهذا ما يشهد عليه الكم الهائل من المخطوطات الموجودة في خزائن تنيكتو، وتيشت، وولاته، وشنقيط، وودان، والتي تشكل ابرز جوانب الإرث الحضاري لهذه الحواضر الصحراوية وهي في الغالب من تأليف علماء تلك المناطق.³⁹

وبذلك انتشرت المخطوطات الجزائرية خاصة التواتية منها في حواضر بلاد الساحل، والمتنقل في ربوع أرض بلاد السودان الغربي، خاصة منطقة الأزواد منها، تستوقفه خزائن عديدة ضمت العديد من المخطوطات التواتية، ففي مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية بتنيكتو بمالي، توجد العديد من المخطوطات التواتية، لعديد المؤلفين كالمغيلي، وابن أب المزمر، ومحمد بلعالم الزجلوي وغيرهم.⁴⁰ وما يقال عن مركز أحمد بابا يقال كذلك عن مكتبة ماما حيدرة بمالي، والتي تضم في رفوفها الكثير من المخطوطات التواتية.⁴¹



كما حفيت توات بجهود علماء بلاد السودان الغربي المدونة في تأليفهم، ككتب العلامة أحمد بابا التنبكي، وكتب أعلام الأسرة الكنتية والأسرة الفولانية. ضمت تلك الكتب المتنقلة عبر المنطقتين مختلف الأوراد والأسانيد والأذكار الصوفية التي تعد الأساس الذي تقوم عليه الطريقة، وقد رسم التشابه فيها صورة واضحة لحركية العلاقات الروحية بين الجزائر وبلدان الساحل.

خاتمة:

خلاصة ما تقدم فإن النشاط الصوفي تميز بخاصية التواصل التي مكنت الطرق الصوفية من الانتشار عبر أرجاء القطر الجزائري، لتمتد جنوبا في الفترة الحديثة إلى بلاد الساحل الإفريقي، مساهمة بذلك في نسج علاقات روحية بين الجزائر ودول الساحل، تقوم أساسا على توظيف العامل الديني وانهاج أسلوب التواصل المستمر، الأمر الذي جعل الأفارقة يُقبلون على التصوف وينهلون من بحر تعاليمه، وعلى ضفاف التصوف أيضًا استقرت مظاهر العلاقات الروحية الأخرى كالرحلات المتبادلة وإنشاء فروع للزوايا. وضمن سياق التجديد، لا يمكن إغفال الدور والتأثير الذي تؤديه رابطة علماء ودعاة وأئمة دول الساحل الإفريقي التي سعت الجزائر في تأسيسها سنة 2013 لتؤسس بذلك مرجعية دينية مكونة من علماء وأئمة ومشايع الصوفية بالجزائر ومنطقة الساحل لمواجهة التحديات الراهنة في إطار مقاربات الأمن الروحي القائم على تعزيز الروابط التي تشكلها المشيخة الصوفية بين المنطقتين.

الهوامش:

¹ - نبيلة، حسن محمود، في تاريخ إفريقيا الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2008، ص 53.

² - Bernard, Saffroy, Chronique Du Touat, C.D.S Ghardaïa, p 05.

³ - عيلة، محمد سلطان. العناصر المغاربية في السودان الغربي دورها السياسي والحضاري منذ ظهور المرابطين حتى نهاية دولة سنغاي. رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة، 1999، ص 134.

⁴ - Alfonse, Gouilly, l'islam dans l'Afrique Occidentales française, paris, 1952, p 61.

⁵ - بوتدارة، سالم، الرحلات العلمية التواتية نحو بلاد الساحل الإفريقي وإسهاماتها العلمية، مجلة آفاق فكرية، جامعة سيدي بلعباس، 2019، مجلد 4، عدد خاص، ص 74.

⁶ - Martin, (AGP), Les oasis sahariennes, Alger, 1908, p 115.



- ⁷ - بول، مارتى، كنتة الشرفيون، ترجمة: محمد محمود ودادي، مطبعة زيد ابن ثابت، دمشق، 1985، ص 34.
- ⁸ - شافو، رضوان، البعد الديني للجزائر في دول الساحل الافريقي ودوره في تعزيز الاستقرار وروابط السلم الاجتماعي، ملتقى التواصل الحضاري بين الجزائر وبلدان الساحل الافريقي، جامعة الوادي، 2017، ص 3.
- ⁹ - شترة، خير الدين، الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المصلح الثائر وفكره الاصلاحى في توات والسودان الغربي، منشورات وزارة الشؤون الدينية والاوقاف، الجزائر، 2011، ص 04.
- ¹⁰ - ألفرد، بل، الفرق الإسلامية، تر، عبد الرحمن بدوي، دار ليبيا، ن، ت، بنغازي، 1969، ص 391.
- ¹¹ - مداح، عبد القادر، التواصل الصوفي بين الطرق الصوفية في المغرب الأقصى وغرب الجزائر 1518 - 1830، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2017، ص 78.
- ¹² - بوكراييلة، الزهراء، الرحلة التجارية بين إقليم توات والسودان الغربي ودورها في تمتين الروابط الثقافية ما بين القرنين 7هـ، 10هـ/ 13م، 16م، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2010-2011، ص 112.
- ¹³ - أرنولد، توماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن، القاهرة 1957، ص 394.
- ¹⁴ - قداح، نعيم، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في أفريقيا الغربية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص 94.
- ¹⁵ - مولاى، محمد، العلاقات العلمية بين توات وبلاد الساحل الإفريقي خلال القرنين 17-18م، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2013-2014، ص 118.
- ¹⁶ - سنة، عامر، الأدب السنغالي العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ج 1، ص 33.
- ¹⁷ - هلال، عمار، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب أفريقيا السمراء، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1988، ص 113.
- ¹⁸ - أرنولد، توماس، المرجع السابق، ص 365.
- ¹⁹ - هلال، عمار، المرجع السابق، ص 111.
- ²⁰ - مفتاح، عبد الباقي، أضواء على الشيخ أحمد التيجاني وأتباعه، مطبعة الوليد، الجزائر، 2007، ص 212.
- ²¹ - قداح، نعيم، المرجع السابق، ص 119.
- ²² - عبد الله، عبد الرزاق ابراهيم، أضواء على الطرق الصوفية في القارة الافريقية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1990، ص 57.
- ²³ - هلال، عمار، المرجع السابق، ص 137.
- ²⁴ - العقبي، مؤيد صلاح، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت، 2002، ص 223.
- ²⁵ - حساني، مختار، تاريخ الدولة الزيانية، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009، ج 2، ص 215.
- ²⁶ - البرتلي، أبو عبد الله الولاتي، فتح الشكور في معرفة علماء التكرور، تحقيق محمد ابراهيم الكتاني، ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص 201.



- ²⁷ - مسعودي، الزهرة، الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب إفريقيا من القرن 18م إلى القرن 20م، مذكرة ماجستير، جامعة أدرار، 2009-2010، ص 42.
- ²⁸ - قدام، نعيم، المرجع السابق، ص 25.
- ²⁹ - عبد الله، عبد الرزاق إبراهيم، المرجع السابق، ص 197.
- ³⁰ - ميسوم، ميلود، محمد بن علي السنوسي، منابع علمه ومنهج طريقته، مجلة الاكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، تصدر عن جامعة حسيبة بن بوعلي شلف، مجلد 10، عدد 2، جوان 2018، ص 138.
- ³¹ - دحدي، سعود، البعد الجهادي المغاربي للطريقة السنوسية 1842-1931م، رسالة ماجستير في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر، 2009-2010، ص 08.
- ³² - Cheikh Awta Diop, Nations negres et culture –paris -E. africaine 1995, p32.
- ³³ - بول، مازتي، القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني وقصة احتلال فرنسا للمنطقة، تعريب محمد ولد ودادي، دار السراج، بيروت، 2005، ص 204.
- ³⁴ - بللو، محمد بن عثمان فودي، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1996، ص 48.
- ³⁵ - جعفري، أحمد، الحركة الأدبية في منطقة توات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، أطروحة دكتوراه في الأدب، قسم الأدب، جامعة تلمسان، 2006-2007، ص 321.
- ³⁶ - غيتاوي، التوهامي، سلسلة النواة في ابراز شخصيات من علماء وصالحي إقليم توات، ط8، الشركة الوطنية للنشر والشهار، الجزائر، 2001، ج1، ص 73.
- ³⁷ - سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ط 2، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، 2005، ج1، ص 212.
- ³⁸ - Martin, (AGP), Quatre Siècle d'histoire Marocain, Librairie Félix Alcan, Paris 1923, p 86.
- ³⁹ - ولد أیده، أحمد محمود، الصحراء الكبرى مدن وقصور، وزارة الثقافة، الجزائر، 2009، ص 38.
- ⁴⁰ - عبد المحسن، العباس، فهرس مخطوطات مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية بتبكتو، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1997، ص 91.
- ⁴¹ - ماما حيدرة، عبد القادر، فهرس مخطوطات مكتبة ماما حيدرة للمخطوطات والوثائق، تحرير: أيمن فؤاد السيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2000، ج1، ص 07.